تعذيب النفس

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

في أوائل السنة الماضية ظهر في ألمانيا كتاب عن الحرب سيكون له أثر بعيد في تقرير السلم وتعريف الناس بحقيقة الحروب . ذاع هـذا الكتاب في ألمانيا ذيوعاً كبيراً وترجم الى الانجليزية خلال السنة فأعيد طبعه بين شهري مارس واكتوبر أكثر من عشرين مرة ، وقيل إن حكومة ايطاليا منعت ترجمته لخوفها على الشـبان أن تميل بهم قراءته الى المسالمة وتطفىء في صدورهم جذوة النخوة وحمية القتال

هذا الكتاب هو كتاب اريخ ماريا ريمارك المعروف بـ « لاجديد في الميدان الغربي » أو « كل شيء ساكن في الميدان الغربي » وهو في أسلوبه أقرب الى القصص منه الى الكتب ، وأشبه بأن يكون مادة للتفكير من أن يكون فكرة أو أفكاراً مفرغة في كتاب

قرأته فرأيت فيه ذخيرة لا تنفد من الملاحظات النفسية وخرجت منه بمحصول قلما نعثر به في رواية واحدة . ولست أريد هنا التفصيل في التعقيب عليه ولكني أريد أن أذكر مثلا واحـداً من الأمثلة التي تتوالى في صفحاته ويجول فيها الفكر بين التأمل والحزن والعجب والاعتبار

فئة من الشبان خرجوا الى الحرب من بلدة واحدة ، ومات أحدهم ميتة شنيعة في ميدان القتال تستدر الدموع. ويصفها الكاتب وصفاً أقوى ما فيه أنه صادق مفصل بسيط.ثم يعود أحدهم ـ وهو الكاتب ـ الى بلدته في أجازة قصيرة مهدّم النفس مضعضع الجسم مبدّل الشعور بكل ما كان يشعر به قبل الذهاب الى الميدان ، فيخطر له أن يزور أم صديقه القتيل ليعزيها في مصابها بعض العزاء أو ليرضي في نفسه بقية من ذكرى ذلك الصديق

قال : « ليس في وسعي أن أدون هـذا في الكتابة . اقبلت عليّ المرأة وهي ترتجف وتنشج وتهزني وتصيح بي : ما بالك انت حياً وقد مات » وتغرقني بالدموع وهي صارخة : « فيم ذهبتم انتم جميعاً يا بني اذا كنت انت . . . . » ثم تمسك وتهبط على الكرسي وهي تندب وتعول :

« أرأيته ؟ أرأيته إذن ؟ كيف مات ؟ » فأقول لها : « أصابته رصاصة في القلب فمات لساعته »

فتنظر الي وتشك فيما أقول وتصيح بي : « أنت تكذب . لقد علمت أكثر من هذا ، حدثني قلبي بميتته الشنيعة ، سمعت صوته في سكون الليل ، سمعت حشرجته وشعرت بسكراته ، قل الحق . إني أريد أن أعلم . لا بد أن أعلم »

قلت: « كلا . لقد كنت بجانبه وقد مات لتوه » ،فعادت تتوسل الي في ضعف ولين : « أخبرني، نعم ينبغي أن تخبرني ، انني لأعلم انك تريد أن تخفف عني ، ولكن ألا ترى أنك تعذبني أضعاف ما لو عرفت الحقيقة ؟ انني لا أطيق هذه الشكوك ، قل لي بما حدث وليكن ما يكون من الهول والرعب فهو أرحم بي مما يهوم في فكري لو أصررت على السكوت »

لست قاتلا . . .

لست مفضياً اليها بما تريد ولو مزقتني شيرة شيرة . وانى لأرحمها ولكنها تلوح لي بليدة غبية . فما لها لا تكف عن هذه اللجاجة ؟ ان كمريش ليظل ميتاً حيث مات علمت به أو لم تعلم . ومن كان مثلي قد شهد من شهد من الموتى عسير عليه أن يفهم فيم كل هذا الألم على فرد واحد ، فقلت لها في شيء من الضجر : « لقد مات لساعته ، مات ولم يشعر بشيء قط من الألم ، وكان وجهه على أهدأ ما يكون من الهدوء »

فسكتت . ثم عادت في بطء وهينة تسأل :

— أو تقسم ؟

— نعم ! — بكل مقدس عندك ؟

يا لله ! وأي شيء مقدس عندى الآن ؟ وما أسرع ما تغيرت معنا هذه الاشياء

قلت : « نعم ! لقد مات لساعته »

قالت : « أتقول لاعدت الى وطنك اذا لم يكن هذا حقاً »

قلت : « لاعدت ابداً اذا لم يكن قد مات لساعته »

وما كنت لأتردد في القسم على أي شيء ، فبدا عليها انها صدقت ، وراحت تئن وتنتحب ، ووجب ان أقص ما حدث فاخترعت لها قصة كدت ان أخدع في صدقها ، وانصرفت فجاءت تقبلني وتهدي الي صورته في كسوته العسكرية وهو متكيء على مائدة مستديرة عليها كوب من الجعة »

سألت نفسي وأنا اقرأ هذه القصة كما سأل الكاتب نفسه : ما لتلك المرأة المسكينة لا تكف عن هذه اللجاجة ؟ نعم ما لها تريد أن تعلم ما يعذبها ويزيد في آلامها ؟ أتراها حريصة على أن يموت ابنها في ميدان القتال ميتة تلعج قلبها وتنكأ جرحها كما أوشك أن يشق ، أصحيح أن في النفس الانسانية نزعة خفية تطلب العذاب وتتدين به أحياناً كما كان يتدين به النساك الغاضبون على الدنيا ؟

وذكرت قصة « كرمازوف » للستيفسكى الكاتب الروسي العظيم وفصلا فيها بعنوان التبضيع أو التمزيق يتلخص فيما تقدم ويدور في جملته على المعذبين أنفسهم من الرجال والنساء وما يخلقونه لها من الشكوك التي تشعل الألم كلما خبا وتستفز الشعور كلما هوّم للرقاد . فهم بين عاشق يخلق الأوهام للشك في إخلاص معشوقه ، وعابد يخلق الأوهام للشك في إيمانه ، ومتفلسف يخلق الأوهام للشك في أمثلته العليا وقواعد تفكيره ، ورجل من رجال الدنيا يخلق الأوهام للشك في قيمته أو للشك في سروره ولذاته ، وكلها شكوك ترمض النفس وتذبح الطمأنينة ذبحة لا تميت فتريح ولا تحيي فتتبعها المتعة بالحياة

وكأن الفصل كله يدور على أن النفس الانسانية تطلب العذاب وتستحليه وتشعر فيه بشيء من الكبرياء يرضيها ويشبع غرورها ويملأ جوانبها ويخيل اليها أنها قوة تثور ويثار عليها وتشتبك مع قوات الشر في نضال شريف يعجبها على السواء أن تنهزم أو تنتصر فيه

وأحسب أن النفس الانسانية تطلب العذاب حقاً في بعض الاحيان وتفخر به ولكنها لا تطلبه لذاته أو لكي تقف عنده ، وانما تطلبه لتقضي عليه أو لتصل منه الى قرار الراحة وبرد اليقين

والنفس الانسانية لا تفعل ذلك إلا في العواطف العزيزة عليها والتي هى عرضة للألم أكثر من

غيرها ، كحب الابن كما نرى في القصة السابقة أو كحب المعشوق أو كحب النفس والثقة بها أو كحب المعبود والامل في السعادة الابدية أو ما شابه ذلك من العواطف

أما لماذا كانت هذه العواطف مناط الألم والعذاب فأمر لا يصعب فهمه وتعليله . لأنه كلما كان الحب عزيزاً كان الخوف عليه شديداً ، وكلما كان الخوف شديداً كان الاحساس بالخطر سريع التنبه متحفزاً للأصغاء من جميع الجهات . فأصغر الشكوك في هذه الحالة كاف لقلب نظام الشعور وانفجار الفوضى فيه وانطلاق الشياطين الخفية في أنحائه ترتع وتعيث كأنها زبانية الجحيم . فلا راحة ما دام للشك منفذ ولا بد في هذه الحالة من اليقين الذي يقضي على كل همسة من الوهم الضعيف وخلجة من الخطر الطيف . وفي سبيل ذلك اليقين الجازم يسأل الانسان ويستقصي ويلح في السؤال والاستقصاء حتى يستأصل الشك من قرار جذوره ويصل بعد ذلك الى اليقين الذي يبتغيه

فوجهة النفس العليا هي اليقين والعقيدة وليست هي الألم والعذاب . ومن ثم قول المرأة : « إنني لا أطيق هذه الشكوك ، فقل لي بما حدث وليكن ما يكون من الهول والرعب فهو أرحم بي مما يحوم في فكري لو أصررت على السكوت »

ولا ريب أن أشد الوساوس إيلاماً للانسان ما اعتراه من قبل الثقة بنفسه ، فربما كان الألم الاكبر في وساوس العاشق أو وساوس العابد أو وساوس المتطلع الى الكمال انها تصيبهم في تلك الثقة فتتركهم وهم لا يعلمون أهم أهل لحب الحبيب واصطفاء الاله والترقي إلى الكمال أم هم أصغر شأناً من ذلك المقام عند من يحبون وما يحبون

ففي الروسيا التي يكثر فيها التناقض بين العالم الخارجي والعالم النفسي يكثر الشك في النفس تبعاً لذلك التناقض البعيد . ففي العالم الخارجي استبداد وقمع وارهاب وفي العالم النفسي استنكار وسخط ونزوع الى الثورة والتغيير ، وعند هذا النزوع ينكشف للنفس ما فيها من ضعف وجبن ورياء وطمع وذلة وصغار ، فتضؤل وتنقبض ويبدأ فيها ما يسميه « دستيفسكي » بالتبضيع أو التمزيق ، ثم تعالج الهرب من شعور الضآلة المميت في فجاج شتى تختلف على حسب اختلاف البيئة والمزاج ، فمن الناس من يلجأ الى الزهد ومنهم من يلجأ الى العنف ومنهم من يتخذ من الشكوك فلسفة يسميها قلة الاكتراث وهي ناشئة في الحقيقة من فرط الاكتراث ، وهكذا يظهر أولئك الأبطال الروسيون الذين يعرفهم كل من قرأ الروايات الروسية لأي المؤلفين : أولئك الأبطال المعروفون بالشذوذ والالحاح وطلب العذاب وضعف الطمأنينة الى أي شيء مما يطمئن اليه الناس : أولئك الأبطال الفدائيون أو المغالون في الاثرة أو المتزهدون أو المعربدون ، وكلهم صرعى « التبضيع » الذي وصفه « دستيفسكي » في رواية كرمازوف

كلا ! لا تطلب النفس العذاب ولا تقف عنده اذا هي طلبته وخيل الى الناظر أنها تتمناه وتشتهيه ، وانما هي تطلبه لتستأصله وتقضي عليه . وتطلبه لتصل منه الى إرضاء معبود أو معشوق أو فكرة أو شعور ، فيلذ لها أن تعرف بالعذاب قيمة من تحب وما تحب . وأن تعرف أن ما تحب جدير بما تلقى في سبيله ، وأنها إذن جديرة بذلك الحب النفيس

عباس محمود العقاد